

الأمير الأمازيغي أبو حمو موسى الثاني رحلة السلطان / رحلة الشعر



د. أحمد موساوي (*)

تلمسان... مدينة المغرب الأوسط، ودار ملك زناته، ومتوسطة قبائل البربر، ومقصد تجار الأفاق.... وهي من أعز معاقل^(١) المغرب، وأحصن أمصاره، اتخذها بنو عبد الواد عاصمة لهم ودار ملك.

أبو حمو موسى الثاني حفيد يغمراسن... أول رجل يعلن سيطرة قبيلة بني عبد الواد الأمازيغية على الحكم، فهو مؤسس هذه الإمارة بالمغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان^(٢)، وعرف عن هذا الأمير أنه من أشد بني عبد الواد بأسا، وأعظمهم بين النفوس مهابة وإجلالا، وأعرفهم بمصالح قومه، اشتهر بحصافة الرأي وسداد التدبير، وهو القائل عندما بلغه أن هناك من يتحدث عن علاقته بالأسرة الشريفة، "إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فبأنا نلناها بسيوفنا"^(٣) و من سللته كان صاحبنا أبو حمو السلطان الشاعر.

إمارة تلمسان الأمازيغية، اختط لها أمراؤها طريقا حولها إلى حاضرة تنافس الحواضر الإسلامية آنذاك، كما فتحو أبوابها السبعة على مصراعها

(*) قسم اللغة العربية - جامعة ورقلة - الجزائر

فكر وإبداع

للوافدين من مشارق الأرض ومغاربها، كل حسب مقصده وحاجته، التاجر، و الشاعر، والحرفي والفنان، والمتصوف والفقيه، فتحولت بالفعل فضاء تشد له الرحال من كل حذب وصوب .

وقد كان للصناع والحرفيين الأندلسيين الفضل الكبير في بناء المدينة وتزيينها ونقل الخبرات إليها من مختلف الصنائع، وتحولت تلمسان للكثيرين من هؤلاء وغيرهم، دار سكنى ، ومقر عيش واستقرار، لما عرفته من حراك اقتصادي واجتماعي وثقافي.

وإن الدور الذي لعبه أمراء وسلاطين هذه الدولة، لا يمكن إغفاله، فكل واحد منهم أسهم بشكل بارز في سبيل التنوير والنهوض العلمي والثقافي، فكم من جامع بني و طريق شق، ومعهد افتتح ومدرسة بنيت، وكم من مهرجانات دينية وثقافية، ومسابقات علمية تستحث العقول، وتوقد القرائح، فتظهر العبقريات في مختلف الفنون والعلوم .

وعلى الرغم من تواجد الإمارة الزيانية بين حجري رحى، أي بين الدولة الحفصية في تونس والدولة المرينية في المغرب، ومعاناتها الوليات من هؤلاء الجيران، الذين حولوا في الكثير من الأزمنة حدودها إلى مادة مطاطية تضيق وتتسع، نتيجة استمرار النزاعات منذ بداية القرن السابع الهجري إلى القرن العاشر، زمن سقوطها، رغم كل تلك الظروف القاسية كانت فاعلة على المستوى العلمي والثقافي والعمراني، على مساحة امتدت حدودها من وجدة المغربية إلى قسنطينة وبجاية شرقا وإلى سجلماسة في الجنوب الغربي ، وما

بقي من معالم وموروث ثقافي دليل على عظمة تلك الإمارة وقوتها زمن أمازيغ بني عبد الواد.

ويعد أبو حمو موسى الثاني من أبرز أمراء هذه الدولة الزيانية، وأكثرهم تميزا في تاريخ تلمسان، فقد ولد في غرناطة عام ٧٢٣ هـ ونال في قصر والده من العلم والفن والسياسة الشيء الكثير.

ولما استولى المرينيون على تلمسان^(٤)، عاش الأمير الشاب بمدينة فاس التي عدت آنذاك من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، فتوسع في طلب العلم واشتغل بالأدب والعلوم الدينية، وما دعم تحصيله أكثر بعد العائلة عن السياسة مؤقتا وانعزالها في مدينة ندرومة.

وبعد فترة من الزمن رحل أبو حمو موسى الثاني إلى تونس بعيدا عن الأنظار، حيث كان يجتمع بالوافدين من قومه، متطلعا إلى أخبار مدينة تلمسان وأهلها، وأوضاعهم في ظل الحكم المريني، وخاصة أن حلم استعادة العرش بدأ يراوده.

ولما سيطر المرينيون على تونس غادرها أبو حمو عام ٧٥٨ هـ مغتتما فرصة انفصال قبيلة الدواودة عن دعم بني مرين، وسعى إلى استمالتهم وحثهم على محاربة السلطان المريني، والتحرك معه من أجل استرجاع تلمسان.

وهكذا، أمضى أبو حمو، سنة كاملة جنوب تونس مصاحبا الدواودة، في تحركهم ومساهما في غاراتهم على بعض المناطق لإجلاء المرينيين، ومتحينا

الفرص للتحرك ناحية الغرب، ناحية دار ملك أسلافه، إلى أن وافته الفرصة لذلك حينما سمع بخبر وفاة السلطان المريني أبي عنان^(٥)، فباشّر عملية الهجوم سريعا لإبعاد المرينين واسترجاع تلمسان.

وقد وصلت دعوات أهالي تلمسان آنذاك، أبا حمو، لإنقاذهم من شر المرينين، والجلوس على عرش آبائهم، " ... فتجهز لذلك مستعينا بالحفصيين ، مؤيدا بكل ما تدعو إليه الحرب من عتاد وأسلحة وجند، فسار إلى ذلك، أبو حمو، بين جبلي عياض وأوراس، فنزل الزاب ثم ريغ ، ورجلان ... ثم سلك قنطرة وهران وهو في ذلك كله يشن غاراته على بني مرين وأنصارهم، وكانت له يومئذ وقائع مشهورة انتصر فيها على خصومه فبايعه العرب وأذعنوا له، واستولى حينئذ على تلمسان وأطرافها..."^(٦).

ولما اقتحم أبو حمو موسى الثاني تلمسان عام ٧٦٠هـ، ودخلها منتصرا، استقبله الولاة والناس مبايعين مستبشرين بعودته لعرش الآباء والأجداد، وكانت عودته بعد رحلة شاقة وحروب ضارية، وليال حالكَة عرف فيها الأمير الجوع والألم، وتصارعت بداخله العواطف والمشاعر، خوفا وقوة، إقداما وإحجاما، وأظهر خلالها سمات الشخصية الملحمية البطولية، من قدرات جسدية وذهنية، إضافة إلى الصفات الأخلاقية و النفسية ، من كرم وإخلاص، وغضب وانتقام، عطف و عفو، وكان رجلا بطلا بالفعل في السلم وفي الحرب.

وكان الشعر مصاحبا لأبي حمو في رحلته المصيرية، بحثا عن الملك، وإن الحكمة والفتنة التي ميزت سياسته للأمور في الحرب والسلم، ميزت أيضا تحكمه في القصيد، وصياغته لتلك الرحلة فنا وإبداعا (٧) :

وخضت الفياقي فدفا بعد فدفا لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجذب والطوى نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال أغر محجل مديد الخطى لم يخش صعب الصلالم

فالفضل البطولي الملحمي هو اللون المميز لهذه الرحلة: (٨)

بهمتنا العليا سمونا إلى العلى وكم دون إدراك العلا من ملاحم
شددنا بها أزرا وشدنا بناءها وكم مكثت دهرًا بغير دعائم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظم
ورضنا جياذ الملك بعد جماعها فذلت وقد كانت صعاب الشكائم

فهذه القصيدة تحوي اثنين وتسعين بيتًا، تصور لنا رحلة الأمير الملحمية وتصاحبه في معاركه لاسترجاع الملك وتثبيت دعائمه ، و سنعود إلى هذا في حينه.

وكان تركيز أبي حمو على تدعيم إمارته، بملاحقة المرينيين وطردهم من كل أنحاء المغرب الأوسط، فأخرجهم من وهران بعد هدم أسوارها عام ٧٦٣ هـ^(٩)، ولم تنته مواجهته الأطماع التوسعة التي كانت في مد وجزر، طيلة حكمه الذي دام أكثر من ثلاثين عاما.

وإن هذه المدة الزمنية الطويلة لهذا الأمير على عرش تلمسان، فسحت له المجال ليشق طريق هذه الدولة نحو الازدهار و الرقي، مع كثرة المنغصات من صراعات داخلية ومناورة من قبل الحفصيين من الجهة الشرقية و المرنيين من الجهة الغربية.

فقاد أبو حمو هذه البلاد بحكمة ومقدرة عالية داخليا وخارجيا، وكم كانت شهامته وكرم أخلاقه، و لين عريكته ، وغيرته، تجعله لا يتأخر في إعانة ورفع الظلم عن شعبه، وكذا التعاون مع إخوانه في الأندلس لمواجهة للأعداء يدعمهم بالمال والعتاد.^(١٠)

ولعل حب أبي حمو للعلم والعلماء، والشعر والشعراء، جعله يسهم بالكثير في النشاط العلمي والثقافي في إمارته، فحظي العلماء والأدباء والكتّاب والطلبة برعاية خاصة، ونالوا من عطايه وكرمه الشيء الكثير، ففي عهده عرفت تلمسان خمسة مدارس أساسية، وكان الجامع الأعظم واسطة العقد، ومركزا ثقافيا يضاهي مراكز الثقافة في العالم الإسلامي، وبرز فيه الكثير من الفقهاء والعلماء، ومنهم أبو عبد الله محمد الشريف الحسين، والذي تخرج على يديه، محمد المديوني، وابن زمرك، وابن السكات، وعبد الرحمن ابن خلدون، وأخوه يحيى، وغيرهم كثر، وكان من أبرز علماء هذه الحاضرة ابن مرزق الخطيب، خطيب جامع الحمراء بغرناطة.

وعرفت تلمسان حركة أدبية مميزة، كان من نشاطاتها وروادها أبو عبد الله القيسي الثغري، الذي كان من كتّاب دولة أبي حمو الثاني، وله من الشعر

قصائد طوال، نظم أكثرها في الحفلات الدينية كإحياء ذكرى المولد النبوي، كما ظهر إلى جانبه أبو عبد الله التلايسي، طيبب السلطان و شاعر البلاط، له تواشيح رائعة ومدائح كثيرة، ومن الشعراء أيضا ابن العطار، وابن سفيان، وابن صالح شقرون، وابن قاسم المرسي،..... و غيرهم كثر .

عاشت تلمسان من خلال هؤلاء وغيرهم، حركة ثقافية نشطة جعلت أقرانهم من البيئات المجاورة والبعيدة يفدون إلى المدينة طالبين التقرب من السلطان وساعين إلى الإسهام في هذه الحركة وإبراز قدراتهم ومواهبهم.

وإن اهتمام أبي حمو بأمور البلاد و العباد، وفاعليته في تحريك المجتمع على كل المستويات وفي كل الميادين، لم يمنعه من الإبداع و الكتابة، وتلخيص تجربته في الحياة والسياسة وتقديم أرائه السديدة وحكمته لللاحقين وخاصة أبناءه، " ... وقد وضعنا لك، يابني، هذا الكتاب... وجمعنا لك ما يصلح لك بين أمور الدنيا والآخرة... وبعد حفظك لكتابنا هذا، وإتباعك للأمور الشرعية والسياسية الدنيوية، فتكون عمدتك كلها، التوكل في جميع أمورك على الله تعالى والتفويض له" (١١).

وقد روى كتاب " واسطة الملوك في سياسة الملوك "، قصة أبي حمو الثاني وصراعه من أجل استعادة الملك، ويتضمن الكثير من القيم الخلقية التي يتوجب على رجال الدولة التحلي بها، وكذا الصفات الذميمة التي ينصح بالابتعاد عنها، كما يركز على الحكم الرشيد لضمان الدنيا والفوز بالآخرة، كما وقف في كتابه عند أركان الملك الأساسية وهي العقل والسياسة والعدل وجمع

المال والجيوش، وفصل الكاتب الأمير فيها كثيرا وقدم نماذج عدة من التاريخ، وعرج على الخصال المحمودة التي يستقيم بها الملك من شجاعة وكرم وحلم وعفو، "... اعلم يا بني، أن الشجاعة وصف محمود، وبها يتفاخر الوجود، واعلم أن ثمرة الشجاعة لم يكن مثل صاحبها في الدنيا وخصوصا في الملوك، فإنها لمآثرها كالوسائط في السلوك، وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عند المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التلقي... "(١٢) ويسترسل الأمير في النصيح وتبيان ما يصلح للملوك "... واعلم يا بني، إذا كان الملك شجاعا كان منصورا مطاعا، ترهبه الأعداء وتطمئن إليه الأولياء، يعتد به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب... قرب الشجاعة بالرعب منصور وفي زمانه معظم مذكور... "(١٣)

وإن المواجهات الكثيرة التي شارك فيها الأمير أبو حمو ضد المرينيين الحفصيين، ونجاحاته المتعددة وبعض انكساراته أكسبته الكثير من الخبرة قدمها لابنه وللأساسة والملوك في كتابه هذا، كاشفا صور الكر والفر، واجتماع الحكمة والقفنة مع الشجاعة في الحرب "... يا بني، وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالحملة، وتأخذ في أمرك بالتأني والمهلة، فإنه لا بد لكل دفعة من رجعة، ولكل كبوة من رفعة، وليكن انتهازك إلى عدوك زحفا، فإنه ترهبه خوفا وزحفا، فإن أبطالك تقاتل بين يديك، معتمدة في قتالها عليك... "(١٤)

ولا يكتفي الأمير الكاتب بما تقدم بل يلتفت إلى تقوية الجيوش وحسن اختيار الوزراء والمستشارين، إلى الفراسة و الدهاء في اكتشاف ما يميز الصالح من الطالح فعلا وقولا، ومنه "... يابني، ينبغي لك أن تنفرس في وزيرك الذي اتخذته لرأيك وتديريك، وشاركته في قلبك وكثيرك، وتتنظر إلى أقواله وأفعاله، وكافة أحواله... فإن كان لك خديم ناصح في خدمتك، موف لجميع حقوقك وحرمتك، ويريد وزيرك أن يوقع به عندك ، ويغير خاطرك عليه ويفسد نيتك وقصدك، فخذ معه في نم ذلك الخديم، وقل ما ليس فيه من حادث وقديم، فإن رأيته وافقك على ذلك، وسلك في نمه كل المسالك، ثم أتى بما هو أشنع علمت أن وزيرك عدو لذلك الخديم، طالب نكبته بكل فعل نميم وأن كلامه باطل، وحاله معه حائل..."^(١٥)

ويتواصل في الكتاب النصح مع التركيز على متطلبات الملك والإكثار من الشواهد والأمثلة الحية التي لاقاها في رحلته الشاقة نحو الملك، هو ورجالاته العسكريون والسياسيون، وفي صدهم لأعداء الدولة الزيانية من بني حفص وبني مرين، "... وإن أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك، عامل في خدمتك وتصافيك، أو من هو بخلاف ذلك، سالك في خدعك شر المسالك، فتفرس في طباعهم، وانظر إلى تملقهم واصطناعهم، واختبرهم إذا ورد عليك سرور على غفلة، وأتاك بشير وارد بعجلة، وكيفية اختبارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين، فتتبين منهم أحوال المحبين وغير المحبين..."^(١٦).

وهكذا يرحل الأمير في كتابه عارضا أفكاره ورؤاه عبر محطات متعددة، تنسم بالكثير من الصدق والواقعية، مع الارتكاز على التجارب الشخصية، فتحدث عن السياسة والمجتمع والإدارة، والحرب، وساق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والحكم والأمثال والأشعار لدعم توجهه، كما وقف عند النفس البشرية وعمل على سبر أغوارها لفهم الطباع و الأمزجة، وقدم أساليب عدة للتعرف على ما تخفيه الأنفس من النوايا والأغراض الخفية، ثم ختم كتابه بالدعوة إلى نصررة الإسلام في الأندلس و الاحتفاء بالمولد النبوي الشريف .

إن حكمة السلطان أبي حمو موسى الثاني، لم تصلنا نثرا عبر كتابة الواسطة فقط، بل واكتبها رحلة أخرى مع الشعر والإبداع، وحقق المقولة الشائعة عن الحكمة لما طلب منها أن تختار بيتا تسكنه فقالت أنها لو خيرت لاخترت بيتا من الشعر تطل من خلاله على الناس، وهكذا أطلت حكم أبي حمو وتجاربه وعبقريته على أبنائه والناس من خلال أبيات من الشعر وأبرزها جاء في هذا المقام ثلاث قصائد ورتت في كتابه، أولاها قصيدة في الفخر وشكر الخالق على نعمه، والثانية في مدح الرسول الكريم، والحديث عن التقوى والتقرب من الله، وفي الثالثة يتحدث عن القوة والحكمة العسكرية والدهاء السياسي.

لقد أشرت في بداية هذا البحث أن رحلة الأمير مع الشعر كانت بالموازاة مع رحلة السياسة ، فمنذ توليه الحكم في تلمسان عاصمة الزيانيين ، ومنذ سقوط آخر دولة موحدة في تاريخ المغرب الإسلامي ، طفت على السطح

الإصطدامات القبلية من أجل النفوذ والسيطرة ، وأبرز مثال نسوقه على حدة الصراع والرغبة في الغلبة و التوسع ما فعله المرينيون حينما بنوا مدينة المنصورة بجوار تلمسان لمحاصرتها وإسقاطها ، وقد كانت المنصورة هاته مدينة متكاملة بجامعها ودورها وحماماتها وكل مرافقها ، مما جعل الحصار يصل إلى ثمان سنوات عرفت تلمسان خلاله ويلات الجوع و العطش والأوبئة.

فهكذا عرف المغرب الإسلامي بعد سقوط الموحدين ، رغبة جامحة لدى أمراء الدويلات لورثة هذه الدولة كاملة غير منقوصة.

وقد مرت دولة بني زيان كما سلف عهد أبي حمو الثاني بهزات عنيفة تعامل معها الأمير بحنكة ودهاء ، جعلها تستمر كقوة اقتصادية وسياسية ، وتبقي حاضرة متميزة تستمد قوتها من الحضارة الأندلسية ومما ربطته من أواصر التعاون العلمي والثقافي مع باقي الحواضر الإسلامية كالقيروان والقاهرة وغيرهما.

إن هذا الأمير الشاعر ، كما يرى التنسي ، ساس أهل إمارته " ... بالسيرة الحسنة وغمر الرعية قسطاس عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه ، وحق يمضيه ، وعاق يرضيه ، وسيف لحماية الدين ينضيه وله من النثر الرائق والشعر الفائق ، ما ارتفعت صنعته من بلاغة الملوك ، ومن العلم العقلي والنقلي ما جلا نوره عن الدنيا مدلهمات الحلوك " (١٧)

فمن هذا نستشف أن الرحلة متنوعة الاهتمامات ، وأن الأمير لم تشغله حنة الصراعات وتسيير أمور الدولة عن التوجهات العلمية والإبداعية ، بل أسهم في شتى الميادين فكان قلمه مجاورا ملازما لسيفه ، وحاضرا حضورا متميزا وفاعلا.

كان لرحلة أبي حمو مع السلطة ومتطلباتها ، وواقعها الحلو والمر ، وأزماتها الداخلية والخارجية ، تواجد على المستوى الشعري ، ففي الشعر السياسي الذي يأتي في الدرجة الثانية بعد نبوياته من حيث الكم ، أرخ الأمير لرحلته وهو يسعى جاهدا لاسترجاع ملك أجداده ولتقوية دولته بعد ذلك ، وعد هذا الفن سجلا للمواقف الحاسمة التي عاشها ، في طريقه نحو العرش: (١٨)

حالي بطول ومحتني لا تنقضي	كم لي بميدان الوغى من محفل
لا بد من سوق التجوع مغريا	حتى تكل متونها بالأحمل
وترى القوارس دائرات بالعدى	تسقي لواردها نقيع الحنظل
يا نجل عامر سرنا واطو السرى	ليلا لعل الدهر يدني منزل

ويتواصل حديثه عن معاركه في طريقه إلى تلمسان عاصمة دولته ويكشف عن هول المواجهة بين أنصاره وعلى رأسهم قبيلة بني عامر وبين قبيلة سويد أنصار المرينين ، فيثني على استبسال جيشه وصبره وجلده في ساحة الحرب.

وضمر عناجيج على صهواتها	كرام سماح بالنفوس الكرائم (١٩)
نطاردها فيها الخيل بالخيول مثلها	فكان على الأعداء كر الهزائم
حملنا عليهم حملة مضرية	فولوا شرادا مثل جفل النعائم

فولت سويد ثم خلت مجيرها وشيخ حماها في الثرى أي جاثم
وكم خلفوا من بين بكر وبكرة وكم غادة ملتفة في الهدانم
فحاز الثنا فيها سفير بني عامر كما حاز من قبل نياي بن غاتم

فالأمير يصور نصره على الأعداء ويفخر بأن الله أعانه في مقصده
ومبتغاه ولا يمكن لمن كان مؤيدا من الله أن يفشل ، فالحرب إذن سياسية
ودينية ، ما دام الأمير يحارب من أشاعوا الظلم ويسعى إلى إعادة الأمن
والعدل فتلك هي مشيئة الله.

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظم (٢٠)
شددنا له أزرا وشدنا بناءه بأوثق أركان وأقوى دعائم
فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التماس المكارم
وجاءت لنا بأمر الله في نصر دينه وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم

إن اعتزاز وفخر الأمير بنصره على المرينين ، وطردهم من تلمسان دار
ملكه ، جعله ينسب هذا النصر ويعيده إلى الله الذي لا يمكنه أن يخيب عبدا
مؤمنا عادلا كأبي حمو.

تخوض بحرا ولا تخشى عواقبه وليس تسلك لج البحر بالنجب (٢١)
عاندت ويحك من أعطاه خالقه ومن سما ذكره في العلم والكتب
ومن يعارض بأمر الله معترضا يخسر و يصبح على بحر من النصب
من رام إدراكنا رام المحال ولا ينجو من السيف من قد لج في الهرب

إلى أن يصل إلى قوله:

وقد نهضت بعون الله متكلا على الإله ومن يرجوه لم يخب^(٢٢)
بعكس لجب ضاق الفضاء به كالبحر أعظم به من عسكر لجب
عرمرم زآخر فاضت مواكبه كأنه سحب أربت عل سحب
من كل ليث شجاع فارس حامي الذمار من الأعاجم والعرب

والدارس لشعر أبي حمو يجد أن حياته السياسية تغلغت في شعره حيث كانت مادتها وفيرة حية ، غنت فنه وتفاعلت معه وأكسبته حيوية وقوة ، مما أغرى القارئ بتتبع رحلته السياسية والشعرية.

والمأمل لنونيته الرائقة تتكشف له تلك اللفة إلى العودة إلى تلمسان عاصمة ملكه ، وفي الوقت نفسه ذلك العشق للمدينة التي أظهرها كغادة حسناء ، أسرها الأعداء وأبعد عنها عنوة وقسرا ولا بد من فك قيدها وإسارها:

كتمت حبي فأفشى الدمع كتمانتي وزاد شوقي على قيس وغيلان^(٢٣)
إني فتنت بذات الخال يا خولي وعذبت بجفاها العاشق العاني
قالت وحق هواك اليوم ما نظرت عيناك عيني إلا ذبت من شاتي
الحب من شيمتي والوجد معرفتي والصبر نافلتي يا آل زيـان
إني وحق حياة الحب ما اكتحلت والله بعدكم بالنوم أجفاتي
ولا شغفت بحسن غير حسنكم ولا أخذت عليكم في الهوى ثان

ففي صورة رامزة ، تظهر ذات الدلال ، تلمسان دار الإمارة ، ولا بديل لأبي حمو عنها ، بل من أجلها يخوض غمار الحروب ، وتعرضه المحن في طريق استرجاعها.

وكم سقيت كؤوس الموت صافية وقد حميت بحد السيف أوطاني^(٢٤)
وكم قهرت عدوا ظالما غشما يوم اللقاء بإظعان و أظعان
وكم عمرت ديارا قل عامرها وقد جعلت ديار الأنس عمران
وقد أقيمت رسوما قل ناصرها يوم الهياج وكل الناس عاداني
حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه فالحمد لله في سر والإعلان

لقد امتزج الحب بالدم في طريق أبي حمو نحو دار الملك ، التي دخلها
فاتحا منتصرا ، وكانت القصيدة حاضرة متابعة الحدث ، كاشفة جوانب عدة
من الرحلة نحو البطولة ، وعلى رأسها الجانب الإنساني ، حيث تهتز
العواطف وتلهب المشاعر كاشفة رقة الأمير.

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شحطتها من هبوب الرواكم^(٢٥)
وقفت بها مستفهما لخطابها وأي خطاب للصلاد الصلادم
وصفقت ما بين الظلول خوامسي وفاضت سواقي الدمع مثل الأرقام

إن استرجاع المجد المفقود والوطن المنتهك يثير الكوامن ويدمي العيون
ولكن ذلك كله عند الأمير رجل السياسة يشترط الجلد والصبر على المكاره
وسرعة ضبط المشاعر والتحول إلى الصرامة:

قطعت الفيافي بالقلاص وإنما تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم^(٢٦)
وقد خلتها بين الرياح زوابعها تسابق في البید ظليم النعائم
ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا يرون المنايا بعض تلك المغائم
وخضت الفيافي فدفا بعد فدفا لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي

فضبط النفس من سمات البطل الملحمي الخاضع لسلطان العقل ، الراغب في الاستمرار في سلوك السبيل السليم نحو المجد ونحو رفع الظلم عن الأهل والوطن ، فلم تستطع النفس إغراء الأمير والانحراف به عن الجادة ، بل كان شديد الارتباط بربه في هزائمه وفي انتصاراته ، كثير التوكل عليه مطمئنا إلى قدره ومصيره.

يا رب كم آنستني في غربتي يا رب كم فرجت كرب المكمد^(٢٧)
يا رب فاجبر ما ترى من حالتي يا رب واجبر قلب كل موحد
يا نفس لا تينسي وإن طال المدى فإلله يجمع شمل كل مبعد
ستعود أيام السرور وطيبها وتعود عن قرب ليالي الأسعد

ولعل أبرز محطة استوقفت الأمير الشاعر مرات عديدة وجعلته لا يفوت الفرصة ويدلي بدلوه فيها هي ذكرى مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والتي كشفت لنا عن تمرس بهذا الفن الجميل الذي أصبح تقليدا مميذا في المغرب الإسلامي والتفت حوله الخاصة والعامة وأشرف عليه الأمير وأوجد له إطارا تنظيميا يقدمه للناس من خلاله كل ما هلت الذكرى على الأمة الإسلامية.

إن هذا التقليد الذي عرفته بلاد المغرب والأندلس ينسب إلى أبي العباس العزفي أمير سبته (ت ٦٣٣هـ)، صاحب كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم والذي أكمله وأنهاه ابنه " ... أبو القاسم، أدام الله عافيته ووفقه، وشرح صدره، وختم بالكتاب والسنة ديوان عمله الصالح وعمره، يذكر فيه بعض ما

خص الله تعالى به نبيه، وفضله على كل من تأخر من خلقه أو تقدم، وما أمتن به عليه وعلى أمته في أن جعله أفضل الأنبياء و جعلهم أفضل الأمم ، من بين ولد آدم، ليتخذوا مولده الكريم موسما، يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصرى وعواندهم، التي يجب لمغانيها أن تعطل ولمبانيها أن تهتم." (٢٨) .

ومن خلال ما وصل من المصادر التاريخية و الأدبية، عن الاحتفال بذكرى المولد النبوي في المغرب، تبين أن هذا الاحتفال كان على صعيدين، رسمي و شعبي (٢٩) ، فالشعبي عرف في الكتاتيب والمدارس القرآنية، والزوايا حيث يجتمع الطلبة والحفظة لتلاوة القرآن الكريم، والأذكار، وقراءة قصة مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم السماع للمدائح النبوية والتواشيح الدينية، وأما الاحتفال الرسمي فيحضره الخاصة و الحفظة والشعراء، في حضرة السلطان ويلقي كل مشارك ما أحضره من مديح في هذا الباب ثم يختم بمدح السلطان صاحب الاحتفال.

وقد كان للأمراء و السلط يد طولى في إشاعة هذا النوع من الاحتفالات في المجتمع المغربي بين طبقاته الدنيا، مع العمل على الحيلولة دون الاحتفال بأعياد النصرى التي شاعت آنذاك نتيجة الاحتكاك بهم في الأندلس والمغرب، مما شكل خطرا على عقيدة المسلمين وعاداتهم وثقافتهم الأصيلة، إضافة إلى أن ترسيم الاحتفال على مستوى السلطة يمكن له أن يحقق أهدافا أخرى أبرزها كسب الجماهير من خلال الارتباط بذكرى الرسول الكريم العربي الأصل، وخاصة أن أغلب أمراء المغرب آنذاك كانوا أمازيغ، وهذا يقوي أواصر

التقارب بين الأمراء وعامة الشعب، ويكسبون رضاهم وولائهم، إضافة إلى إشاعة القيم المحمدية في مواجهة القيم المسيحية الوافدة.

وكان للأمير أبي حمو دور فعال وبارز للعيان في إرساء هذه الاحتفالية فكان "... يقوم بحق ليلة مولد المصطفى ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة..."^(٣٠)، فهذا السلوك الحكيم من الأمير والذي تحدث عنه في سياسة الملوك، استقطب الناس في دولته، فغطى على احتفالات النصاري ووفر فضاء دينيا أخويا موحدا للمشاعر ومساويا بين العامة والخاصة في اجتماعها و تلاقبها ليلة ذكرى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، من خلال مظهر احتفالي بهيج وناجح حقق تلاحما وانسجاما في النسيج الاجتماعي للبلاد.

وقد حفز الأمير الشعراء من كل الأمصار على النظم في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ودخل معهم المنافسة وسبقهم إلى تلك المحمودة فما من "... ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى أول ما يبتدئ المسمع في تلك المحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظما"^(٣١)

ومن افتتاحيات المحمدية الرائقة، قصيد مطلع

قفا بين أرجاء القباب وبالحـي وحي ديارا للحبيب بها حـي
وعرج على نجد وطلع ورامه وسائل فدتك النفس في الحي عن مي

وقل ذلك المعنى المعذب بالهوى يموت ويحيى فارث للميت الحي
وبث لهم وجدي وفرط صبابتي ورو حديثي فهو أغرب مروى
يعذبني شوقي ويضعفني الهوى وقلبي على جمر من الشوق محمي

وإن حديثنا عن رحلة الشعر عند أبي حمو وخاصة في فن المديح النبوي يستدعي منا وقفة متأملة في تركيبته الفنية وبنيته التي لم تخرج عن التقليد السائد في شعر العرب، فقد بقيت المدحة النبوية لصيقة بفن المديح العربي، فكثيرا ما التزم كعب بن زهير وحسان بن ثابت بما عرفه المدح آنذاك من نكر للأطلال و الدمن ، والبكاء والشكوى للفراق واستوقفوا الرفيق، ووصلوا كل ذلك بالشوق إلى الأحبة لما في ذلك من أثر في النفوس على حد قول نقادنا القدامى، ثم الانتقال إلى تعداد خصال الممدوح الذي يعد ركيزة و مقصد هذا الفن.

فهذا المسلك التزم به شعراء المديح النبوي، لمدة طويلة إلى أن وصلوا لمجموعة من الخصائص والتقاليد التي اعتبرت أكثر انسجاما مع مدح الرسول الكريم، فاستعاضوا عن ذكر الديار بذكر الأماكن الحجازية والتشوق إليها، وقد أشار ابن حجة الحموي لهذه القضية في خزانته حينما قال " إن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي، يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضامل ويتشيب، مطربا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق، والعذيب والغدير ولعلع، وأكناف حاجر، ويطرح ذكر الأرداف ورقة الخصر، وبياض الساق، وحمرة الخد، وخضرة العذار وما أشبه ذلك" (٣٢).

فكلام ابن حجة في هذا الباب يتضمن توجيهها صريحا لمذاح الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى النهج الأسلم والأليق في بناء قصائدهم ومنظوماتهم، إذ يدعوهم إلى الحياء والحشمة وتوقير الجنب النبوي، ويجد أن ذكر المربع المقدسة تؤدي الغرض وتنسجم مع طبيعة هذا الفن، وفي الوقت نفسه لا تبعد عن التقليد الفني السائد في قصيدة المديح العربية، فالمدحة النبوية بهذا الشكل ستجعل الشاعر يتحرك في الإطار والفضاء الذي انتشرت داخله القيم الإسلامية الراقية، والنفحات الإيمانية النقية.

وبهذا الشكل أصبح المديح النبوي بمقدماته الجديدة يلعب دورا أساسيا في إثارة مشاعر الوجد الديني لدى الشعراء والمتلقين، وتحول في الوقت نفسه إلى تقليد راسخ اصططنعه الشعراء لفنهم المستجد، ومحافظا على الوظيفة النفسية التي عرفتھا المقدمة الطللية قديما، ومن ثم أظهر مذاح النبي براعة في استمالة القلوب وتحريك العواطف الدينية.

ولم يشذ أميرنا الشاعر عن هذا الواقع الجديد، والتقليد المستحدث، وأصبح الجو الإيماني في قصائده يتطلب احتشاما ونأيا عن الأوصاف الحسية، فجاءت مطالعه بأسطة للخواطر النفسية في تأدب ووقار نابع من أدب ووقار الأمير.

فكان الدعاء إلى عودة الأحباب الضاعنين، وهو في حقيقة الأمر دعوة إلى عودة ذلك العهد الجميل المليء بالإيمان والورع الذي عرفتھ أرض الحجاز واحتضنته أرض النبوة، فهي أيام مضت وولت، ولكن نفس الشاعر المسلمة تواقه لها وآمله في رجوعها، فالأمير كله شوق إلى تلك المعاهد:

ذرفت لتذكّار العقيق دموعي وازداد شوقي للحمى و ولوعي
والحب شب أواره بضلوعي من لي بشمل بالحمى مجموع
وبجبر قلب بالنوى مصدوع
هي النسيم من أرض نجد شاقني والبرق أرقني سناه وراقني
والذنب عن وصل الأحبة عاقني وجرت دموعي كالعقيق وخاتني
صبري وكان الشوق أصل خضوعي^(٣٣)

ولم تعد الرحلة في المديح النبوي الرحلة المعروفة في شعرنا العربي بل
الشاعر هنا يصف الراحلين، وهم في هذا المقام، حجاج بيت الله، ويقف متأملا
في معاناتهم ومشاقهم وهم يسلكون أوعر الطرق وأخطرها نحو الحجاز من
أقصى المغرب، هي مشاق مستعذبة لها متعتها ولذتها ما دامت من أجل
الوصول إلى الحبيب.

ومنه قول الأمير^(٣٤) :

ما للمحب دواء غير وصلهم يبيري له السقم والتبريح و الوصبا
وقد تقطع قلبي بعدهم قطعا لما نأوا وقصوا في سيرهم أربا
سار الأحبة نحو الرقمتين ضحى وخلفوني رهين القلب مكتنبا
ساروا على البزل والحادي يجد بهم والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا
هذي الأحبة قد شدوا مطيهم وأسرعوا بقباب الحي نحو قبا
ولا رضيت لنفسي غيرهم بدلا ولا وجدت لقلبي دونهم طلبا
ولا سلوت ولا أسلو لبعدهم إن السلو عن المهجور قد حجا

زموا إلى زمزم والقلب يتبعهم والصبر بعدهم عني لقد عزيزا
وخلفوني بغرب مغرما بهم أشكو لهم وبهم من عبرتي عجبا
فقلت يا حاديا والركب يسمعي رفقا على الصب يا حاديهم فأبى

إن الذي غذي الإحساس العميق بالمكان في المديح النبوي عوامل عدة أبرزها حب زيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهي من الفضائل المرغوب فيها، ومن خلالها ندرك أنه لا فرق بين حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) واحترامه حيا أو ميتا، وبسبب ذلك كله تضاعفت حوافز الرحلة الفردية والجماعية إلى ذلك الفضاء المقدس، وتلك المنازل النبوية، وعلى المستوي الشعري أصبح توجيه رسائل الشكوى والاستغاثة إلى الحجاز والتعبير عن الحنين إلى تلك المراتب، كثير الشيوخ، مع ذكر الموانع التي تحول دون الوصول إليها، وحين يصعب ذلك يصوغ الشاعر مشاعر الوجد والعشق، مشيرا إلى امتناع اللقاء الجسدي واستمرار التواصل عبر الروح والخيال مادامت أسباب المحبة المحمدية قائمة في النفس وكامنة فيها.

إن الروح لتتشوق لتلك الزيارة ، التي اعتبرها المسلمون في الشرق والغرب، أعظم ما يقرب العبد من نبيه وربّه، فهي سبيل يرفعه إلى أعلى الدرجات^(٣٥).

ألا أيها الركب المخبون بالضحي عسى لك من أرض الحجاز ظعون
أعيدوا أحاديث العزيب وأهله قلبي بأحاديث العزيب فتون
أمن طيبة يا قوم ثوار ركبكم فعن طيبها هذا العبير يبين

محط ركاب الوحي منتجع الهوى مساحب ذيل الرشد حيث يكون
مواطن خير الخلق آثار نعلـه ومثواه حيا وهو ثم دفين
هو المصطفى المختار من آل هاشم أولي الشرف الوضاح منه جبين

وللأمير أبي حمو موسى الثاني أيضا إطلالات رائقة في هذا الباب (٣٦) :

قفا خبراني عن رسوم نواهج وعن معلمات طبيبات الأرائج
وعن أرض نجد و العذيب و بـارق ولا تخبراني عن ذوات الدمالج
وجوبا الفياقي والمهامه واستعن على قطع أسباب النوى باللواعج
وعوجا بأرض الطلح من أرض رامة وزفا الهوادي عند رملة لاعج
وإن جنت نجدا فانتشق من ترابها كعرف عبير أو كطيب النوافج
وإن أبصرت عينك أرض تهامة فبشراك قد وافيت أسن المناهج

وتترسخ الصلة و العلاقة بين أحزان و آلام و أشواق الشاعر و بين معاهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتهامه و نجد و العفيف و رامة و الأبطح و الرملة ، فيحملها الشاعر عواطفه و شكواه ، وقلّة حيلته و عدم مقدرته على تخطي الموانع للوصول إلى تلك المراتب ، فكان الاستئناس بذكرها و تذكرها، وبعد ذلك ينتقل الأمير إلى محطات أخرى زينت المديح النبوي و ميزته ، كالنداء للمعاهد النبوية بالسقيا ، و ذكر الشيب و ضياع العمر في اللهو و الانغماس في الملذات ، وهذا كله قبل أن يتحول الشاعر بسلاسه إلى مدح الرسول الكريم ، و ذكر خصاله و أخلاقه و تعداد معجزاته و أثر دعوته على الإنسانية جمعاء.

وقد اعتبر الدارسون لهذا الفن أن كل ما يقدمه الشاعر في هذا المقام من مواظ وحكم في بداية قصيده مستحسن لدى المسلم ومنسجم مع الطبيعة الإنسانية^(٣٧) وهذا لأنها موضوعات يمكن اعتبارها جسورا ملائمة تنقل وتحمل الشاعر و المتلقي إلى الموضوع الأساس وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وفي مديح محمد (صلى الله عليه وسلم) يتحول الشاعر من الحديث عن التجربة الذاتية و المعاناة الوجدانية ، إلى الآخر/ الممدوح ، وهي مرحلة غيرية في مقابل المرحلة الذاتية.

وهذا المديح ارتبط بشخصية محمد الإنسان و النبي ، وأخذ عبر التاريخ سمات عدة ، ففي العهد الأول للإسلام ظلت المدائح محافظة على تقاليد القصيدة العربية ، وامتزجت بالمؤثرات الدينية المستجدة ، وقد سعى مداح النبي آنذاك إلى تقديم مدائح نبوية منسجمة مع المفاهيم و التصورات الجديدة للحياة و للفن ، فنجد الشاعر " ... يتجاوز الملامح التقليدية التي رصدت في صورة البطولة الجاهلية على ما قد يشوبها من طيش أو حماقة أو عنف لتحول على يديه إلى صورة مهذبة ينبثق منها الحس الإسلامي الجديد ... فإذا بملامح البطولة تتراءى مجسدة في مكانة رسول الله عليه السلام كهاد للأمة وبشيرا بالحق " (٣٨)

فقد صبغت ولونت الكثير من القيم التقليدية بالطابع الديني الجديد عند مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وخاصة أن التوجه الجديد قد أقر الكثير من

تلك القيم وهذبها وأعطاهها معان مستحدثة ، ولم يعد المديح النبوي متميزا في معانيه و مضامينه إلا بعد اكتمال مفهوم النبوة في أذهان الناس و الشعراء ، وهنا لا يمكن بحال من الأحوال أن نلوم الشعراء القدامى على ما علق في مدائح النبي الأولى من آثار الجاهلية وهذا لأنه لم يسبق لهم أن مدحوا نبيا .

ووقوف الشاعر هنا عند صاحب الذكرى ، ذكرى المولد النبوي ، هو وقوف عند هذه الشخصية للتعبير عن العواطف المتأججة تجاهها من جهة ، واستعراض لأفضالها على الأمة وذكر لأخلاقها واعتراف بعظمتها وتفردا وتتميزها عن سائر المخلوقات من جهة أخرى.

ومن ثم كان الحديث عن الحقيقة المحمدية والنور المحمدي وسيلة بلور من خلالها الشاعر الزياني عشقه لتلك الشخصية وحبه العميق لها ، وقد كان للمتصوفة تواجد في هذا الفن النبوي من خلال نظريتهم عن الحقيقة المحمدية التي روجوا لها وكشفوا في الكثير من أقوالهم و أشعارهم أن الله خلق الدنيا وأخرجها من العدم إلى الوجود من أجل هذا النبي ، " والحقيقة المحمدية عند الصوفية هي التي أمر الملائكة أن يسجدوا لها لأنها هي التي كانت تلالأ في جبهة آدم^(٣٩)..." ، وهي العماد الذي قامت عليه قبة الوجود عند ابن عربي فهي " ... منتهى غايات الكمال الإنساني ، فهي الصورة الكاملة للإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه حقائق الوجود ... هي المشكاة التي يستقي منها جميع الأنبياء و الأولياء العلم الباطني"^(٤٠)

وقد ظهرت هذه النظرية في المدائح النبوية ، في مرحلة الصراع مع الصليبيين الذين بالغوا في مدح المسيح عليه السلام مما دفع شعراء المسلمين إلى مجاراتهم في التركيز على الغيبيات و المعجزات ، مشكلين في أشعارهم عالما علويا يتوقون إليه ، ويحتل فيه الرسول الكريم مكانا فريدا بين الخالق ومخلوقاته، هذا إضافة إلى تأثيرات الفرق الدينية وتوجهاتها ، وكذا الثقافات الأجنبية الوافدة ، مما حول النبي إلى أعلى المراتب ، وهنا منتهى المدح .

ومنه ما جاء عند أحد أقطاب الصوفية ، وهو محمد البكري ، وهو مثال يورده زكي مبارك في كتابه ، ويشير إلى أنه من قبيل الغلو في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه وصف أضفى على النبي الإسلام ثوب شخصية المسيح .^(٤١)

قبضة النور من قديم أرتنا	في جميع الشؤون قبضا وبسطا
وهي أصل لكل أصل تبدى	بسطت فضلها على الكون بسطا
كل شيء معناه و الكل منه	وعليه مبناه ما اختل شرطا
واحد الشخص وهو مختلف الجن	س يقينا من أنكر الحال أخطا

ولكنه توجه لم يشكل ظاهرة بارزة في شعر المديح النبوي وفي شعر الأمير أبي حمو الثاني فوسمت بعض قصائده بهذا الفهم الصوفي ، وخاصة أن النبويات عنده ارتبطت بذكرى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكانت مركزة على معاشة الاحتفال في جو من الزهد و الورع ومراجعة النفس

بتذكيرها بسيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) و التغني بخصاله بعيدا عن
مناهات المتصوفة والفلاسفة .

ومن ذلك ما قال الأمير في إحدى قصائده^(٤٢)

نبي كريم جاء بالرشد و الهدى	إلى كل قلب في الضلالة مارج
وأشرقت الأنوار من نور أحمد	فمنه استفاد الكون كل المباهج
فبدر الدجى والآنجم الزهر كلها	وشمس الضحى من نوره المتبالج
وما الرسل إلا تحت ظل لوائه	وكلهم عن جاهه غير خارج

وقد أبرز مداح النبي محبتهم له وتعلقهم به ، وتشوقهم لزيارة قبره في
أغلب قصائدهم ، وإن أحاسيسهم الدينية الأصيلة كانت نابعة من الشعور
العميق بفعاليات كمالات الفضائل المحمدية ، فظهرت على شكل تنويعات على
صوت النفس المحبة للرسول الكريم ، وما كان يزيد نار الشوق استعارا هو
البعد المكاني في أقصى المغرب الإسلامي حيث تواجد الأمير الشاعر.^(٤٣)

ألا يا رسول الله دعوة شيق	يؤمل أمالا لديك فساحا
مقيم بغرب كاد من فرط حبه	يطير اشتياقا لو أعير جناحا
ومالي سوى حبي إليك وسيلة	أمد بها نحو الشفاعة راحا

فلو توفر للأمير المحب جناحان لطار إلى المربع الحجازية للتلمي برؤية
الروضة الشريفة و الفوز بشفاعة صاحبها ، فالعجز عن الرحيل إلى ذلك

الفضاء الإيماني جعل الروح تتفصل عن جسد الشاعر ، وترحل مع الراحلين
تاركة الجسم في ألم وسقم.

قلبي بهواه أسير هواه	فيا شوقاه إلى العلم ^(٤٤)
سرت الإبل لما ارتحلوا	قلبي حملوا في ركبهم
حملوا خلدي أفنوا جلدي	تركوا جسدي رهن السقم

إن الوضع النفسي هنا ، تصنعه وتشكله رحلة الحجاج وتحرك الراحلين
وتوديعهم ، فهو موقف يهيج الأشجان وتدمع له العيون.

مزجت دمعي لما من بعد رحلتهم	فاتنر تري عجا للدمع مختضبا ^(٤٥)
لا تذكروا حال قيس في محبته	إن الهوى لم يزل للحر منتسبا

إنه الحب العف ، الحب النبيل ، فهو استرجاع لمعانة المجنون ، وهو
تطابق للحالات النفسية ، حب شريف يمتاز به الرجل الحر ، ويبتعد به عن كل
الدنايا.

وهكذا ، في رحلة ارتقاء عبر سلم تصاعدي عاطفي يصور الأمير حرقه
الحب والشوق إلى لحظة الخلاص عن طريق وصل أو إجابة عن سؤال ، أو
الحصول على شفاعاة .

مشوق تزييا بالغرام وشاحا	متى ما جرى ذكر الأحبة صاحبا ^(٤٦)
تعذبه أشجانه وهو صابر	ويبدي اشتياقا زفرة ونوحا
لكل محب في التأوه راحة	إذ أن من فرط الحب وناحا

فكر وإبداع

فكم زفرة في القلب أحرقت الحشا كنار تلاقي الهبوب رياحا
أبحتم صدودي في الغرام ولم تروا وصالي في شرع الغرام مباحا
أجود بنفسي في رضاكم صباية فهلا منتقم بالوصل سماحا
إلى أن يصل إلى قوله في القصيد نفسه

ألا ليت شعري هل أזור بطيبة ربوعا بها حل الهدى وبطاحا^(٤٧)
أسكن أشواقى بقرب لقائهم وأنشد قلبا بالأبيطح طاحا
فيا حاديا يحدو الركاب لطيبة يجوب بها بحر الفلاة طلاحا
إذا جنت نجدا أو نشقت نسيمها وشمّت عرارا ربوة وبطاحا
فصرح بذكري في الخيام وأهلها وناشدهم شوقي هناك صراحا
وبلغ إلى خير الأنام تحيتي كما نم زهر في الرياض وفاحا
نبي له فضل على كل مرسل أتت ألسن الذكرى بذاك فصاحا

فتصريح الشاعر في قصائده بحب النبي وطلب الشفاعة يعد سلوكا سليما يسير بالنفس إلى التوازن و التغلب على الذنب واسترجاع الصلة مع المحبوب وتمتينها بتجديد العهد ، فالنفس تحن إلى من تحب و تشاق إليه ، و الشوق كما يرى لسان الدين بن الخطيب^(٤٨) " ... حركة النفس إلى تتميم ابتهاجها بتصور حضرة محبوبها ، وهو من لوازم المحبة وذاتياتها"

وإن الإعجاب بكمالات النبوة التي تعد قبسا نورانيا في المقام الأعلى ، تسبب في تلك المبالغات التي نصادفها في مدائح الرسول(صلى الله عليه وسلم) والمعددين لفضائله التي فاقت بقية المخلوقات ، وهي مبالغات لها مسوغاتها

الشرعية والوجدانية ، فالنص القرآني واضح فيما يتعلق بعظمة الخلق النبوي " وإنك لعلی خلق عظیم " (٤٩) كما أن الجانب الوجداني عند المسلم - حسب رأى محمد بنعمارة - تتكفل بتهذيبه محبة الله ورسوله ، وكذا باقي الرسل والأنبياء ، مما يجعل هذا الوجدان رقيقاً قادراً على تمثيل النموذج البشري الكامل في النبي محمد ، هذا النبي الذي من عليه ربه بمديح قرآني وثني عليه محبوبه من شعراء النبويات. (٥٠)

وكان لمعجزات النبوة مكانها في مدائح الأمير ، فاستعان بمجموعة منها انسجمت مع موضوعات نصوصه ، وأبرزها ما ارتبط بولادته (صلى الله عليه وسلم) والتي عبرت عن الانبعاث و التجدد على مستوى العقيدة ، والنفس الإنسانية ، و الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، ونورد من ذلك هذا التخميس: (٥١)

يا ليلة الإثنين نورك قد سما	وانجابت الظلماء عن أفق السما
وانهد إيوان كسرى عندما	خلق النبي الهاشمي معظما
في ليلة غرا بشهر ربيع	
بهدي رسول الله أمته اهتدت	بظهوره، الأصنام خرت وارتدت
وبنوره نيران فارس أخدمت	ودلائل باتت وآيات بسدت
وشفاعة جاءت لكل مطيع	

وإن ما عرف عن شعراء المديح النبوي من ميل إلى تعداد المعجزات والوقوف عندها مطولاً يعود إلى كثرة ورودها في مصادر السيرة النبوية ، وإلى تأثير الصوفية آنذاك ، والذين كانوا ميالين إلى الخوارق والكرامات

والترويج لها وتوظيف الخيال في ما نسج حولها لإرضاء أنواق الناس وشد الانتباه وتعظيم الشخصية الإسلامية .

والحديث عن المعجزات بصفة خاصة في مدائح الرسول الكريم وبدرجة أخص في حفل بهيج يشرف عليه الأمير بنفسه كان له أهداف ذاتية وجماعية ، فالمخيلة الشعبية تستهوي هذه الأشياء الخارقة ، وترغب في سماعها كثيرا لأنها تقدم الرسول الكريم ، بطلا إسلاميا ومنقذا الأمة في عهد اشتدت فيه المحن والأزمات ، فحلم الجماعة أن يرفع الكرب بعمل خارق معجز يعيد للأمة قوتها وعافيتها ، فالحديث عن المعجزة يشبع العواطف الدينية عند المستمع و الشاعر ، ويحقق بلوغ الغاية في مدح النبي .

ولم يكن شعر الأمير بمنأى عن كل هذا ، بل أسهم فيه إسهاما واضحا - أوردنا مثالا على ذلك- كما نجده يقف عند محطة أخرى في المديح ألا وهي محطة التوسل وطلب الشفاعة التي تتحول إلى تقليد ملزم في المدائح النبوية ، ففيها يظهر الشاعر قوة العاطفة الدينية ، وقمة النقاء الروحي ، وضعفه أمام الخالق ، وقلة حيلته ، فيستغيث بالجانب النبوي ، وهذا النوع من الاستغاثات المدوية يظهر لما تضيق على الناس السبل وتهتز القيم وتتدهور العقائد ، وتغلق الأبواب ، ولا يبقى سوى التوجه إلى الله وإلى نبيه شفيع الأمة: (٥٦)

إلهي هب لي منك عفوا ورحمة	فما زلت يا مولاي تببلغني القصد
وعبدك موسى لم يزل فيك راجيا	ومن شيم المولى بأن يرحم العباد
توسلت بالمختار من آل هاشم	أجرني من النار التي أضمرت وقدا

هو الرحمة الهادي الشفيع لنا غدا هو المصطفى المختار يلهمنا الرشدا
هو الذخر للهول الشديد إذا أتى ومن ذا سواه للمخاف إذا اشتدا
وما ميز المدائح النبوية عند أبي حمو موسى الثاني ، وغيره من شعراء
عصره ، هو ارتباطها بمتعاليات مقدسة كان لها وقع حسن لدى المتلقي ، فقد
نظمت بشكل كشف عن عواطف دينية صادقة ، ونفحات إيمانية عميقة ،
أثارت نفس الأحاسيس لدى المستمعين ، وخاصة أثناء إنشادها في حفل
للسلطان ، كما أنها كثيرا ما ربطت بين مدحها للنبي وبين واقع المسلمين
وهموم عصرهم ، فتفاعلوا معها ، وكثيرا ما قابل فيها الشعراء بين سعي
الأمراء إلى الحفاظ على قيم الأمة ومنجزاتها ، وبين ما قدمه الأوائل وعلى
رأسهم محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وللأمير الزياني ، مساهمات أخرى في الرثاء والفخر ، فمن مرتباته قصيد
كشف فيه فجيعة في والده أبي يعقوب (ت ٧٦٣) ، الذي أحسن تربيته وتعليمه ،
وكان كثير الملازمة له ، وخاصة في غربته بعد سقوط تلمسان .

أفجعتني يا زمان اليوم في خلدي ما أسرع الموت في الأحباب حين وفي^(٥٣)
صارت مساكنهم تحت التراب وقد تمزق الدود ما كان مؤتلفا
الماء والنار مجموعان في كبدي فأعجب لضدين في قلب قد انتلفا
نار تشب وأكباد تذوب بها ويح المعذب بالجنسين بالهفا

بكى الأمير والده ، وشكا ألمه وفجيعة فيه ، وبكاؤه ليس ببعيد عن مكانه
الوطن والملك الضائع ، فضياع الأب ضياع تلمسان عاصمة الملك ومرتع
الصبا.

يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلدا يا فقد يوسف إن الصبر عنك عفا^(٥٠)
 يا مثل يوسف مفقود لفاقدده ولا كموسى أخو فقد إذا وصفا
 أصيب بالمعضل الأدمى بوالده كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفا
 يا قبر يوسف لا تهدوك هامية من الغمام ولا زال الثرى رغا

فلا بديل للأمير إلا هذه الأبيات تشفي حرقته على والده ، وتخفف من وطأة
 الألم والحزن.

فهذا هو الأمير أبي حمو موسى الثاني الزياني الأمازيغي ، لم يكن ذلك
 الرجل السياسي والعسكري المحنك الحصيف فحسب بل كان رجل فكر وإبداع
 في الوقت نفسه ، فرحلته مع السياسة لم تمنعه من أن يرحل مرات عديدة مع
 العلم والفكر والفن ويخصص بعض وقته لذلك ، وإن ما خلفه من آثار تبين عن
 ثقافة عربية أصيلة ، وذوق أدبي رفيع ، جعله ينافس الكثير من الأبناء
 والشعراء ، وخاصة في ميدان المديح النبوي ليلة الاحتفال بذكرى مولده(صلى
 الله عليه وسلم).

وهكذا تنتهي رحلتي في هذه الأوراق مع أمير الأمازيغ الذي أبدع على
 مستوى السياسي في أراضي بلاد المغرب ، كما أبدع في الحديث عن هذه
 الرحلة في كتابه " واسطة السلوك في سياسة الملوك " ، وأهدى للقارئ
 العربي عصارة خبرته وتجاربه في الحياة بلغة عربية تتخللها تهويمات خيالية
 رائعة وممتعة ، كما أبدع هذا الرجل على المستوى الشعري حينما صاغ رحلته
 هذه في قوالب فنية عدة فكان الفخر وكانت الحماسة ، حينما تستوقفه بطولاته

وفتوحاته ، وكان الرثاء حينها يستوقفه القلب عند فقد الأحبة وكان مديح
الرسول الكريم حينما يتذكر الأحبة في البقاع المقدسة ، وحينما تهيج كوامنه
وهو يودع إلى مكة قوافل الحجيج الراحلة من المغرب إلى بلاد الحجاز ،
محملا إياهم رسائل الشوق إلى شفيح الأمة محمد خاتم النبيين .

الهوامش

- ١- الأصالة : ص: ٠٧
- ٢- نفسه : ص: ١٤
- ٣- نفسه : ص: ١٣
- ٤- حاجيات : ص: ٧٣/٧٢
- ٥- نفسه : ص: ٨٦
- ٦- تاريخ الجزائر العام : ١٥٥/١٥٤
- ٧- نفسه : ص: ١٥٥
- ٨- حاجيات : ٣٢٢/٣٢١
- ٩- عبد الرحمن الجيلالي : ١٤٧/
- ١٠- نفسه : ص: ١٥٦
- ١١- حاجيات : ص: ١٨٧
- ١٢- نفسه : ص: ٢٧٠
- ١٣- نفسه : ص: ٢٧١
- ١٤- نفسه : ص: ٢٧٤
- ١٥- نفسه : ص: ٢٧٩
- ١٦- نفسه : ص: ٢٨٣
- ١٧- تاريخ ملوك تلمسان : ص: ١٦٠/١٦١
- ١٨- حاجيات : ص: ٢١١

- ١٩- نفسه ص: ٢١١/٢١٢
- ٢٠- بغية الوارد : ص: ٣٦
- ٢١- نفسه ص: ١٥٧
- ٢٢- نفسه : ص: ١٥٧/١٥٨
- ٢٣- حاجيات : ص: ٢١٥
- ٢٤- نفسه : ص: ٣١٥
- ٢٥- نفسه : ص: ٢٩٩
- ٢٦- نفسه : ص: ٣٠٠
- ٢٧- نفسه : ص: ٢١٧
- ٢٨- أزهار الرياض : ج٢/ ص: ٣٧٥/٣٧٦
- ٢٩- مجلة كلية الآداب: ص: ٢٥٩
- ٣٠- حمادي: ص: ٢٢٤
- ٣١- حاجيات : ص: ٣٤٥
- ٣٢- خزنة الأدب : ص: ٣٦
- ٣٣- بغية الرواد: ج٢ ص ١٢٥/١٢٧
- ٣٤- حاجيات : ص: ٣٧٢/٣٧٣
- ٣٥- بغية الرواد : ج٢ ص: ٢١٦
- ٣٦- حاجيات : ص: ٣٧٥
- ٣٧- النيهاني : ص: ١١

- ٣٨- أبعاد المؤثر الإعلامي ، ص: ١٤
- ٣٩- شعر عمر ابن القارص/ص: ٢٠٥
- ٤٠- المعجم الصوفي : ص: ٣٤٨
- ٤١- زكي مبارك : ص: ٢٣٢
- ٤٢- حاجيات : ص: ٣٧٧/٣٧٦
- ٤٣- بغية الرواد : ٩٩
- ٤٤- نفسه : ص: ٤٣
- ٤٥- نفسه : ص: ١٨٨
- ٤٦- نفسه : ص: ٩٩/٩٧
- ٤٧- نفسه : ص: ٩٩
- ٤٨- روضة التعريف بالحب : ص: ٦٤٨
- ٤٩- القلم /آية ٦٤
- ٥٠- بن عمارة : ص: ١١٤
- ٥١- بغية الرواد : ص: ١٢٧/١٢٦
- ٥٢- نفسه : ص: ٢٢٦/٢٢٥
- ٥٣- نفسه : ص: ٢١٩
- ٥٤- نفسه : ص: ٢١٩

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- ١- ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الألب ، شرح ، شعينو. دار الهلال ، بيروت ، ط ح ، ١٩٩١.
- ٢- ابن خلدون يحي : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج ١ ، دار الجيل بيروت ، ط ه ، ١٩٨١
- ٣- ننعجارة محمد : الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، شركة النشر والتوزيع ، الدار البيضاء المغرب ط ٢٠٠١
- ٤- التطاوي عبد الله : أبعاد المؤثر الإسلامي في القصيدة العربية ، دار الثقافة ، مصر ، د ط ، د ت.
- ٥- حاجيات عبد الحميد : أبو حمو موسى الزباني ، حياته وأثره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط ٢ ١٩٨٢
- ٦- زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، د ط ، د ت
- ٧- سعاد الحكيم : المعجم الصوفي ، د ندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، د ط ، د ت

- ٨- عاطف جودت نصر : شعر عمر بن القارض ، دراسة في فن الشعر الصوفي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢
- ٩- عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام .
- ١٠- عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة والنشر ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
- ١١- لسان الدين بن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، رت ح، محمد الكتاني ، دار الثقافة ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٠ .
- ١٢- محمد بن عبد الله التنسي : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ت ح ، محمود بوعباد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د ط ، ١٩٨٥
- ١٣- النبھاني : المجموعة النھائية في المراسح النبوية ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦

الدوريات

- ١- مجلة الأصالة : عدد ٢٦ ، سنة ٠٤ جويلية ، أوت ١٩٧٥ مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر.
- ٢- مجلة كلية الآداب/تطوان : السنة ٢ ، عدد ٠٢ مطبعة النجاح ، الدار البيضاء ، المغرب ١٩٨٧ .

